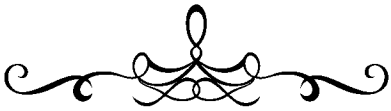

فاضل أحمد باشا وفتح جزيرة "كريت"

ولد "فاضل أحمد باشـا" في مدينة "وزيركُوبْرُو" عام (١٦٣٥م)، وهو الابن الأكبر للصدر الأعظم "كوبرويلو محمد باشا"، وأمّه السيدة "عائشة بنت يوسف آغا" من مدينة "حَوْضَا"، كان والده رجل دولة تربى في مدرسة الحيـاة، ولـم يتلقَّ تعليمًا، وكان يرغب في أن يكـون ابنه من أرباب العلم والمعرفة عند بلوغه سنّ الشباب، فاستصحبه إلى إسطنبول وسنّه لم تتجاوز السابعة، وألحقه بالتعليم المدرسيّ، فتلقى "أحمد" الدروس من أشهر رجال العلم هناك، وأظهر تقدمًا بارزًا في غضون مدّة قصيرة، وأصبح مدرسًا وهو في السادسـة عشـرة، وعند بلوغه الثانية والعشـرين تم تعيينه مدرسًـا في مدرسـة "صحن ثمان" (٨٦)، والتي كانت من المؤسّسـات التعليميّة العالية آنذاك، وكان ذلك عام (١٦٥٧م).

(٨٦) مدارس "صحن ثمان": المدارس العالية التي أنشأها السلطان محمد الفاتح في إسطنبول عقب فتحها، منها ثماني كنائس حولها إلى مدارس، سميت بمدارس "صحن ثمان"؛ وكانت توازي كليات الآداب وأصول الدين في الوقت الراهن. سهيل صابان: ص ٢٠٥.

اشتهر "أحمد باشا" بلقب "باشا زاده"، وكان ارتقاؤه السريع سببًا في فتح الباب لانتقاده في الأوساط العلميّة المحيطة به، حزن فاضل أحمد جدًّا لما يتردّد عن شخصه، وانزعج بشدّة، ولم يعد يطيق العمل، فقام "كوبرولي" بعزل ابنه عن فئة العلماء وعينه برتبة وزير على ولاية "أرضروم"، وبعد أن خدم "فاضل أحمد" هناك عامًا، أُرسل في العام القابل إلى ولاية الشام، وأثناء عمله بـ "الشام" أجرى حملات ناجحة على الدروز، ورفع عن الأهالي مجموعة من الضرائب التي فرضت في عهد الولاة السابقين، ونال رضا والده والسلطان "محمد الرابع" بما أظهره من كفاية ومهارة عالية في الإدارة، ونتيجة تلك الجهود الناجحة التي حققها في الشام؛ تمّ تعيينه أميرًا على حلب.

الصدر الأعظم ابن السادسة والعشرين

عندما بلغ الصدر الأعظم "كوبرويلو محمد باشا" الثالثة والثمانين، أصابه المرض، وحينما اشتدّ عليه المرض في صيف عام (١٦٦١م)، تخوّفوا من فراغ منصب الصدر الأعظم، ولما سألوه عن الرجل المناسب لكي يخلفه في تلك المهمّة قال:

- لو أردتم أن يستتبّ الأمر، ولّوا ابني "فاضل أحمد باشا" أمير حلب مقام الصدر الأعظم.

لم تكن رغبة الباشا تلك مجرّد أمنية مبتذلة أو حتى ساذجة على سبيل المحاباة لابنه، بل كانت نابعةً من إدراكه أنّ ابنه سيكون اليد القادرة على إدارة البلاد(٨٧).

(٨٧) سميحة أيوردي، الأب البطل ونجله، مجلة تاريخ اللغة التركية، مجلد ٦، ص ٣٩ و ٧٢.

لم يستطع "فاضل أحمد باشا" أن يبدأ وظيفته في حلب، إذ استُدعي بقرار سلطانيّ عاجل للحضور إلى إسطنبول، وانتقل الباشا الشابّ في غضون مدّة قصيرة إلى إسطنبول، وبعد استدعائه لمقابلة السلطان "محمد الرابع"، تمّ تعيينه قائمًا بأعمال الصدر الأعظم، أي: نائبًا عن رئيس الوزراء في يوليو/تموز عام (١٦٦١م).

وبعد ذلك بحقبةٍ زمنيّةٍ وجيزةٍ، بدأت تتدهور تدريجيًّا صحّة الصدر الأعظم "كوبرويلو محمد باشا" الذي رافق السلطان إلى أدرنه، وفي النهاية توفي الباشا في الحادي والثلاثين من أكتوبر/تشرين الأول عام (١٦٦١م)، وأصبح "فاضل أحمد باشا" -القائم بأعمال الصدر الأعظم- الصدر الأعظم وهو في السادسة والعشرين من عمره بناء على وصيّة والده.

إقالة شيخ الإسلام

كثرت الأقاويل، فمَنْ كان يقدحُ في الأب من قبل لِكِبَرِ سِنِّهِ بدأ الأن يقدح في الابن "فاضل أحمد باشا" لِصِغَرِ سنِّه وقلّة خبرته.

استقبل السلطان "محمد الرابع" الصدر الأعظم الشابّ، وقال له مسرّيًا عنه مطيّبًا خاطره:

- لقد سَعِدتُ جدًّا بالخدمات التي قدّمها والدك للدولة، ولا تستطيع أن تعرفَ مدى حزني على فقدي رجلَ دولة دؤوبًا وهو من الثقة بمكان، إن شاء الله ستكون أنت أيضًا مثله!

كان شيخ الإسلام "محمد أفندي صنعي زاده" متواجدًا في القاعة، ولم يكن يحبّ "كوبرويلو محمد باشا" ألبتّة، فاستأذن السلطان، وتحدّث

عن والد الصدر الأعظم الجديد، وذكر أنّه كان شديدًا، وأراق دماء الناس قائلًا:

- والدك أراق دماء كثيرين، لكن أرى أنّك من الفضلاء، وأنك تعرف أحكام العدالة، وأتمنّى ألا تُشبه أباك، نسأل الله السلامة!

دُهِشَ الصدر الأعظم الشابّ الذي يعرف بانضباطه وعدالته من كلام شيخ الإسلام، وكشف المستور عنه حيثُ كان يتملّق والده فيما مضى، فوبّخه قائلًا:

- إن كان والدي قتل أحدًا، فقد قتله بفتواك أنت! فلمَ أفتيت؟

فوجئ "صنعي زاده" بهذا الجواب فقال:

- فتاواي كانت خوفًا من ظلمه!

عندئذٍ ردّ الباشا قائلًا:

- سيدي! أتطلب رضا الناس بمعصية الله تعالى؟ فماذا تقول إذا وقفت بين يديه؟

فأثلج هذا الردُّ المفحمُ صدرَ السلطانِ، أما شيخُ الإسلام الذي لم يَحِرْ جوابًا، فقد أُقِيل من منصبه ونُفِي إلى رودس(٨٨).

سار كوبرويلو زاده على نهج والده الملتزم المتوازن نفسه، وقمع محاولات التمرّد في بدايتها.

(٨٨) مصطفى جزار، التاريخ العثماني، المجلد الثالث، إسطنبول ١٩٦٠م، ص ٢١٠٧.

قلعة "أُويْوَارْ"

تسبب النزاع الحاصل حول إقليم "أردل" بحملةٍ عسكريّةٍ على النمسا شنّها "فاضل أحمد باشا"، حيث حاصر قلعة أويوار -واسمها عند الألمان "*Neuhausel*"- في الثامن عشر من أغسطس/آب عام (١٦٦٣م)، وقد استغرق فتح قلعة أويوار مدّة قصيرةً لا تتجاوز سبعةً وثلاثين يومًا، وهذا النصر قد أكسبه صيتًا كبيرًا، لأنّها كانت محصّنةً جدًّا، وتمتلك وسائل دفاعيّة جيّدةً، فوصلت قوة العثمانيّين في الغرب إلى ذروتها، وما لبث أن شاع بين شعوب أوربّا فتح الأتراك لقلعة أويوار وعمّهم القلق والخوف.

يروي المؤرّخ النمساويّ "هامّر" أن إحراز فتح أويوار في سبعة وثلاثين يومًا قد أصاب أوربّا بالدهشة والخوف، وتسبّب في إشاعة استيلاء الأتراك على بلاد أوربّا بأكملها وهذا ما أثار القلقَ والخوف الشديدين لدى أبناء القارّة جميعًا.

في يوم الحصار السابع والثلاثين حينما أُجبر "فورجاجس" قائد قلعة أويوار على تسليمها، لوّح من داخلها بالراية البيضاء طلبًا للأمان، ووافق الصدر الأعظم على بعض شروط العدوّ، وكان الطلب التالي من ضمن ما طلبه قائد القلعة:

"دقُّ الطبول، ورفع الأعلام عند مغادرة القلعة".

فكان ردّ "فاضل أحمد باشا" للرسول على هذه المادّة:

"إن لم تستحوا، فدقّوا طبولكم، وزمّروا بمزاميركم، وارفعوا راياتكم!"

ميناءٌ تجاريٌّ مهمّ

حينما عاد "فاضل أحمد باشا" من حملة النمسا، دعا السلطان "محمد الرابع" إلى الاجتماع كلًّا من الصدر الأعظم وشيخ الإسلام وقضاة الجيش والوزراء والقادة جميعًا، وأخبرهم أنّ جميع القلاع في جزيرة كريت في يد الدولة العليّة عدا قلعة "كَانْدِيه"، وقد طلب من الصدر الأعظم فتح تلك القلعة معربًا عن قلقِهِ حيالَ المسلمين المتجهين إلى الحج وإلى مصر جراء المضايقات التي قام بها جنود تلك القلعة.

كانت جزيرة كريت آنذاك موقعًا لا غنى عنه للسفن التجاريّة؛ فهي أكثر محطّات الاستراحة أهمّيّةً في نقل بضائع الشرق الأقصى والهند إلى أوربّا وفي تجارة البندقيّة مع سواحل الأناضول، وكانت جزيرة كريت تُشكّل تهديدًا مستمرًّا للعثمانيّين؛ لأنّها تقع على مسارات بحريّة تُنْقَل عبرها موادّ غذائيّة من مصر وتونس والجزائر وطرابلس إلى إسطنبول.

قلعةٌ مُحاطَةٌ بالخنادق

إن حروب كريت تُعدُّ واحدةً من أطول حروب الدولة العثمانيّة في القرن السابع عشر، حيث بدأت الحرب عام (١٦٤٥م)، وتمّ فتح "هانيا" و"ريسمو"، أمّا قلعة "كانديه" فلم يتمكن من الاستيلاء عليها ألبتّة، وبدأ الاستعداد للحصار إبان وصول الأسطول المكون من سبع وأربعين سفينة إلى ميناء "هانيا" بكريت في الثالث من نوفمبر/تشرين الثاني عام (١٩٦٦م)، فتوجّه "فاضل أحمد باشا" فورًا إلى قلعة كانديه، وقام بعمليّة استطلاع، ثم وَضَعَ خطّطه بناءً عليها، ولم يَبُح بنتائج الإستطلاع لأحد تعتيمًا على أهل البندقيّة لئلّا يأخذوا حذرهم.

أمضى الباشا ذلك الشتاء في هانيا، وأرسل أوامره إلى بقاع أراضي الدولة لتوفير الجنود والذخيرة اللازمة للحصار.

كانت قلعة كانديه محاطةً بحصونٍ منيعةٍ تحتوي على مستودعات غنيّةٍ بالذخيرة بها مئاتُ المدافع، وأمامها خنادق عميقة واسعة، كان طول الخنادق المحيطة بالقلعة يصل إلى ثمانمائة ألفٍ وثمانمائةٍ وتسعة عشر ذراعًا[٨٩] أي: أكثر من خمسة كيلومترات.

هذا علاوة على أنّ أهل البندقيّة منذ أن بدأت حروب كريت عام (١٦٤٥م) حتى عام (١٦٦٧م) -أي قرابة اثنين وعشرين عامًا- قد حفروا أنفاقًا على أطراف القلعة، وكانت طرقات تلك الأنفاق تتألف من ثلاثَ طبقات متتالية، وتمتدّ للأمام مسافة ثلاثمائة ذراع إلى أربعمائة.

بدأ الحصار بالفعل بإقامة المتاريس في الثامن والعشرين من مايو عام (١٦٦٧م)، وأمر القائد "فاضل أحمد باشا" بوضع مدافع كبيرة أيضًا على السواحل؛ لكي يتمكن من قمع مدافع أسطول البندقيّة، هذا بالإضافة إلى المدافع أمام متاريسِ العدوّ على البرّ، وصُفّت المدافع أيضًا بجزيرة "إنجيرلي" المطلّة على البحر المتوسط.

حروب الأنفاق

اشتهر حصار كانديه بحروب الأنفاق، فلقد خطّط البندقيّون لإنزال خسائر فادحة بالجيش العثمانيّ بإشعال النيران بالخنادق العثمانيّة، وأمر الصدر الأعظم بتدمير أنفاق البندقيّين وذلك بحفر أنفاق ذات ثلاث

(٨٩) الذراع: وحدة طول تمتد من طرف المرفق حتى طرف الإصبع الأوسط، وتقدر بحوالي ٦٠سم.

شعب، وأصدر تعليماته بعد الانتهاء من ذلك باستمرار المضيّ قدمًا بالأَنفاق، فكان الجيش العثمانيّ يقضي على أنفاق العدوّ بحفره طرقات تحت الأرض، وإقامةِ المتاريس على تلك الطرقات، وكان البندقيّون -حين يشعرون بوجود حفر في أيّة جهة- يقومون بإضرام النيران في الأنفاق بتلك الجهات، مما أدّى إلى سقوط أغلب الجنود العاملين بحفر الأنفاق خلال تلك الحرب شهداء أو جرحى.

في غضون ثلاثة أشهر من تاريخ بدء الحصار، فجّر العثمانيّون ثلاثة وخمسين ومائة نفق، وأما البندقيّون فقد فجّروا اثنين وثمانين ومائة نفق، واستشهد "حسن باشا" أمير أمراء الروملي هو وعدد كبير جدًّا من الجنود نتيجةَ انفجار نفقٍ أشعله البندقيّون أمام سواتر لجنودِ ولاية الروملي في سبتمبر/أيلول عام (١٦٦٧م)، وبحلول فصل الشتاء تجاوز عدد أنفاق فجرها الطرفان ستّمائة نفق.

في حين كانت حرب الأنفاق مستمرّة بمنتهى السرعة، كانت أيضًا طلقات المدافع والبندقيّات مستمرّةٌ بشكلٍ عنيف، وكابَدَ الطرفان خسائر فادحة، ولأجل ذلك أخبر الصدر الأعظم السلطانَ بالموقف، وطلب ذخيرة مع حلول الربيع، ومعدَّات مختلفة وعددًا كبيرًا من الجنود وحفّاري الأنفاق.

قرّر "فاضل أحمد باشا" أن يقضي الجيش الشتاء في الخنادق حذرًا من بناء البندقيّين ثغورًا جديدة وشقّهم أنفاقًا جديدة إذا ما غادر الجنود الخنادق، فبنى الجنود العثمانيّون غُرَفًا من الطوب اللّبِن في طرقات الأنفاق، وبعضُها في السواتر، وأقاموا سوقًا في تلك الطرقات، فكأنّ

معسكر الجيش قد تحول إلى مدينة تحت الأرض، وتمّ توزيع الرواتب بين الإنكشاريّين وقابي قولي[٩٠] بالخنادق[٩١].

أمضى الجيشُ الشتاء في الحصار، وقضى الصدر الأعظم أيضًا الشتاء في حجرتين صغيرتين مبنيّتين في مدخل النفق، وتشير تلك الواقعة إلى قوّةِ الجيش العثمانيّ الْمُذهِلة في مجال التشييد والبناء، وتفوقه الكبير في تخطيط الحصار.

يتحدث الجنرال "فرانسيسكو موروسيني" قائد قلعة كانديه في رسائل أرسلها إلى ملك البندقيّة عن قوّة الجنود العثمانيّين وصلابتهم، ويروي أنّ قضاء الجيش الشتاء في الخنادق أمرٌ لم يُسمع بمثله حتى يومنا هذا[٩٢].

قذائف العدوّ غير المتفجّرة

في فصل الشتاء نفسه نقلت السفن إلى الجزيرة ذخيرةً وعتادًا ومعدَّات تكميليّة ومعدَّاتٍ حربيّة مختلفة تم تجهيزها في سواحل الأناضول وروملي.

أما في الجزيرة فقد تمّ صنعُ مدافع جديدة لاستخدامها في الحصار، في البداية صُنع ثلاثة مدافع من طراز مدافع العدوّ لإعادة إطلاق القذائف التي أطلقها البندقيّون من القلعة ولم تنفجر وقد بلغت حوالي خمسين ألف قذيفة، ثمّ صُنع أحد عشر مدفع بَلْيَمَزْ[٩٣] بدار المدفعيّة في

(٩٠) قابي قولي: لفظ مركب بمعنى عبيد الباب، ويطلق على مجموع جنود الدولة العثمانيّة الذين يشكلون فرق المشاة والخيالة العاملين بأجر. د.سهيل صابان: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانيّة التاريخيّة ص ١٧٢.

(٩١) د/ أرسين كلسوي، فتح كريت، إسطنبول ٢٠٠٤م، ص ١٣٤-١٣٩.

(٩٢) كرسوي، المصدر السابق، ص ١٤٣.

(٩٣) مدفع قديم ذو مدى بعيد.

قلعة "إناديه"، كما جُهّز معمل القنابل العثمانيّ لصنع ألف قنبلة يدويّة من طراز "همبرا"(٩٤) في اليوم الواحد.

وقد أنشؤوا متراسًا محصّنًا يرتفع عن سطح البحر بنحو ثلاثين ذراعًا في مواجهة حصن "قيزل"، ولم يُسمح ولو لِزَورق واحدٍ بدخول القلعة، إذ وُضعت المدافع على الجهة الشرقيّة والغربيّة للقلعة على حدٍّ سواء.

في أثناء الحصار انفجر مستودع ذخيرة في "كانديه" نتيجة قذيفة أطلقتها المدفعيّة العثمانيّة، فأهدر ألفي قنطار من البارود، كما لقي عددٌ كبيرٌ من الجنود حتفه.

بعد أن تواصلت الحرب في العام الثاني بنفس حدتها؛ تقدمت كتيبة قوامُها مِن خمسمائة جنديّ إلى ستّمائة بقيادة "دوق (*Noailles*)" صوب ثكنات الجيش العثماني في الخامس والعشرين من يونيو/حزيران عام (١٦٦٩م)، وهاجمت الخنادق العثمانيّة، إلا أنّها اضطرت للتراجع إلى القلعة نتيجة دفاع الجنود المكلّل بالنجاح، وأثناء تلك العمليّة التي قام بها جنود البندقيّة بالاشتراك مع الفرنسيّين قُتِل كثير من النبلاء الفرنسيّين ورُبّان أسطول الباباويّة، وبعد أن فشلت خطّتهم حدثت مشاجراتٌ بين الفرنسيين والبنادقة، وعلى إثر ذلك قرر الفرنسيون الرحيل والعودة إلى بلادهم.

وصرّح دوق البندقيّة في رسالة أرسلها إلى ملك فرنسا أنّهم لو ساعدوه في رفع الحصار عن كانديه، لترك لهم القلعة.

(٩٤) نوع من القنابل اليدويّة.

أهميّة "كانديه"

لقد تحولت مسألة كانديه إلى مسألة كرامة لأهل البندقيّة والعالم المسيحيّ كله، كما كانت المسألة بنفس الأهمّيّة بالنسبة للعالم الإسلاميّ، ولقد أعرب السفير -رسول أهل البندقيّة إلى الصدر الأعظم- أنّهم سوف يدفعون الجزية والتعويضات الحربيّة مقابل تنازُلِ الجيش العثمانيّ عن كانديه؛ لأنّها بمنزلة كرامة العالم المسيحيّ، فأجاب فاضل باشا غاضبًا:

- لم نأتِ هنا للتجارة، فالحمد لله دولتنا في غنىً، ولا تحتاج إلى المال، ولن نساوم على كانديه بأيّ ثمنٍ أبدًا.

وأفصح أنّ فتح القلعة للعالم الإسلاميّ يُعدّ مسألةَ كرامةٍ أيضًا.

يرى "هامّر" أنّ ما أُنفق على كانديه من مال وما بُذل من جهد في سبيلها لم يُبذل مثله لأجل أيّة قلعة في العالم حتى ذلك الوقت، والسبب في هذا هو تحول مسألة تلك القلعة إلى مسألة كرامة للعالمين المسيحيّ والإسلاميّ(٩٥).

رفض "فاضل أحمد باشا" لمقابلة سفراء البنادقة

وقد اضطر البنادقة توقيع معاهدة السلام مع العثمانيين وتسليم القلعة بعد أن فشلت القوات الفرنسية والمالطاوية والقوات التي أرسلتها البابوية في صدّ الهجمات المتتالية للجيش العثماني والدفاع عن القلعة.

(٩٥) أكسون، المصدر السابق، المجلد الثاني ، ص ٢٢٦.

أخيرًا في التاسع والعشرين من أغسطس/آب عام (١٦٦٩م) خرج من القلعة رسولان للبندقيّة، واقتربا من الساحل الذي انتصبت عليه المدافع العثمانيّة، وأعربا عن رغبتهما في مقابلة الصدر الأعظم، فأرسل "فاضل أحمد باشا" "قره كولاق أحمد آغا"، وأمره بما يلي:

- لو كان السفيران القادمان من الفرنسيين، فلا تستمع إليهما وردّهما، وأمّا إن كانا من أهل البندقيّة، فسلْهما عن سبب مجيئهما، فلو قالا: معنا رسالة، فأرسلهما إلى قلعة "صوده"، ولو جاءا لشأنٍ آخر فأخبرني.

عندما علم أحمد آغا أنّ القادمين هما القائم بالأعمال التحريريّة لـ"موروسيني" قائد القلعة، ووكيل الحراس، سأل عن سبب مجيئهما، فأجابا:

- جئنا للحديث في أمر ميمون.

قال آغا:

- لو جئتما لتسليم القلعة، فبها ونعمت! أما إن جئتما للحديث عن شيء آخر، فلن يُؤذن لكما بمقابلة الصدر الأعظم!

وبناءً على ذلك صرّح السفيران أنّ أمرَ تسليمِ كانديه ليسا هما المعنيان به، وعادا مرّةً أخرى إلى القلعة للتباحث مع الضابط "موروسيني"، إلا أن السفيرين نفسيهما عادا مرّة أخرى بعد ساعتين ليوضحا أنّهما سيبدآن في مباحثات السلام من أجل تسليم القلعة في اليوم التالي.

مائة ألف شهيد خلال اثنين وعشرين عامًا

كلّف الصدر الأعظم "قره كولاق أحمد آغا" و"بانيوت أفندي" مترجم المجلس الشوريّ بمقابلة السفيرين في الثلاثين من أغسطس/

آب عام (١٦٦٩م)، وبعد يومين بدأت مباحثات السلام، واستغرقت تلك المباحثات ستّة أيام ثم وُقّعت معاهدة السلام التي تضمّنت سبع عشرة مادّة في السادس من سبتمبر/أيلول من نفس العام.

وهكذا انضمت كانديه إلى أراضي الدولة العليّة، بعد أن كانت عصيّة على الجيش العثمانيّ لمدّة اثنين وعشرين عامًا، وقام الجيش العثمانيّ أثناء الحرب بنحو مائة هجومٍ على القلعة، ففجّر خمسمائة وثلاثة آلاف نفق، وأطلق ثلاثين وسبعمائة ألف قنطار بارود، وفقد ثلاثين ألف شهيد، فقد رُوِي أنّ عدد الشهداء في معارك كريت على مدار اثنين وعشرين عامًا تجاوز مائة ألف.

تحقّق فتح كانديه بمثابرة "فاضل أحمد باشا" وجهده بوجه خاصّ، وببسالة الجيش العثمانيّ وعزمه.

بعد الفتح

طبقًا للمعاهدة، كان أهل البندقيّة سيخلون القلعة في السابع عشر من سبتمبر/أيلول عام (١٦٦٩م)، فاستدعى الصدر الأعظم الفريق الأول "موروسيني"، ورحّب به ومنحه الهدايا الثمينة، ثمّ ركب قائد القلعة وأهل البندقيّة الآخرون بالقلعة المراكبَ الشراعيّة الكبيرة واتّجهوا صوب قلعة "إستنديا"، واستقبل سكان كانديه الرومان -الناجون من ظلم البندقيّة الكاثوليكيّة- الفتحَ بفرحةٍ عظيمةٍ، وأعربوا عن ارتياحهم بفتح القلعة من قِبل العثمانيّين، وعين الصدر الأعظم قائدًا لضمان سلامة ما يقرب من سبعين إلى ثمانين يهوديًّا في القلعة.

قام "فاضل باشا" بكتابة تلخيص[٩٦] الفتح في الثالث من أكتوبر/تشرين الأول عام (١٦٦٩م)، وأرسله إلى السلطان وكان آنذاك بمدينة "يني شهر"، وبعد استقرار الجيش تمامًا بالقلعة تمّ تحويل أربع عشرة من كنائس كانديه الكبيرة إلى جوامع، حمل أكبرها اسم جامع السلطان "محمد الرابع"، وحملت الأخرى أسماء "السلطان إبراهيم"، و"السلطانة الوالدة طورخان"، و"فاضل أحمد باشا" وسائر الوزراء والقادة، وأقيمت شعائر الجمعة الأولى للفتح في جامع "خنكار" في الرابع من أكتوبر/تشرين الأول من العام نفسه، وأُلقيت الخطبة باسم السلطان، وفي العشرين من أكتوبر/تشرين الأول جاءت هدايا من السلطان إلى الصدر الأعظم مثل: الخطّ السلطانيّ وفِراء وسيف وخنجر كما خُصّص قصرُ فريق أوّل لإقامة "فاضل باشا".

الصدر الأعظم ووالدته

بعد أن تلقّى الصدر الأعظم التهاني من العلماء، وقادة الجيش وعلى رأسهم شقيقه "مصطفى بك"، مرّ على قلعة "إناديا (*İnadiye*)"، فزار والدته وحظي ببركة دعائها، وجهزها لتحجّ مع شقيقه، ووَفقًا للمصادر التاريخيّة أنّ أمّ أحمد باشا سيّدةٌ لا نظيرَ لها في العفّة والتعبّد، وكانت تقوم الليل كلَّه.

كتب أوليا شلبي في مذكراته أنّه تم الاستيلاء على معدَّات حربيّة من ذخيرة القلعة، وأربعمائة ألف بندقيّة ومائتي ألف سيف وخمسة آلاف

(٩٦) تلخيص: الكتابة المختصرة، وقد اصطلح على استخدامه في عهد الدولة العثمانيّة على الملخصات التي كان يدون فيها الصدر الأعظم ملخص الموضوع الذي يود عرضه على السلطان بغية تحصيل موافقة السلطان، فيقوم السلطان بتدوين ما يراه تجاه ذلك على أعلى الورقة فتسمى حينئذ الخط السلطاني. سهيل صابان: ص ٧٥.

قنطار من البارود وثلاثة آلاف غِرارة من ملح البارود وسبعة آلاف قنطار من الرصاص وأعداد كبيرة من الفؤوس والسهام والأقواس والدروع والسلاسل.

وتشير يوميّات "طوبجي باشا" رئيس المدفعيّة أنه تمّ الاستيلاء على خمسة ومائة مدفع بعيد المدى وخمسة وخمسين وخمسمائة مدفع صالح للاستخدام وخمسة وثمانين مدفع هاون وسبعة عشر مدفع "شايقة" -مدفع كان يستعمل في الحصار- وألفي مدفع رشّاش.

أمضى الصدر الأعظم الشتاء في كانديه، ثمّ أبحر في السابع والعشرين من مايو/أيار عام (١٦٧٠م) بأسطول قوامه ثمانون سفينة إلى ساحل "تكيرداغ"، ومنه إلى أدرنه حيث يقيم فيها السلطان.

لا ريبَ أن لـ "فاضل أحمد باشا" جهودًا فائقة في فتح قلعة كانديه؛ إذ نجح في فتح القلعة بمحاولته إقناع السلطان -الذي سيطر عليه القلق من طول الحصار- بأنّ فتح القلعة قد أوشك أن يتحقّق، وسعى مسعًى دبلوماسيًّا مع أهل البندقيّة واستطاع إفشالَ الصلح الذي أراده البنادقة وأجبرهم على تسليم القلعة.

عزيمة الباشا

وقفت فرنسا مع أهالي البندقيّة في مواجهة صريحة ضدّ العثمانيّين؛ حيث أرسلت ستّة آلاف جنديّ إلى الجزيرة أثناء حصار كريت، لكنها لما تيقّنت بأنّ نتيجةَ الحرب لصالح الدولة العثمانيّة رغبت في استعادة صداقتها القديمة المزعومة؛ فأرسلت سفيرًا جديدًا إلى الدولة العليّة.

فـي أكتوبر/تشـرين الأول عـام (١٦٧٠م) وصـل "ماركـي دي نوتيل" إسـطنبولَ ثـمّ أدرنـه، وقابل الصدر الأعظـم، كان هدفُه تجديـدَ امتيازات أجنبيّـة انتهت مدّتها، وإمكانيّة اسـتمرار التجارة من وإلى الهند عن طريق مصر والبحر الأحمر، إلا أن الصدر الأعظم استقبله بفتورٍ؛ فدُهش "ماركي دي نوتيـل"، وأرخى "كوبرويلـو" زاده عمامته على عينيه، ورفـع قَبَّةَ الفرْوِ حتى غطّت وجهه، ومدّ قدميه واضعًا إحداهما على الأخرى، باسطًا يديه علـى ركبتيـه، وكان "كوبريلـي زاده" وقورًا جدًّا حيث أنـه لم يُكثر الكلام بل كان يكتفي بقوله "حسنا" للرد على كلمات السفير، وعندما قال السفير الفرنسـي "ماركـي دي نوتـل (*Marki de Noitel*)" أن هنـاك علاقـةً وطيدةً تجمـعُ بين الفرنسيّين والعثمانيّين تغيّرت ملامحُ وجهِهِ وانعقدت قائلًا:

- نعم، الفرنسيّون أصدقاؤنا، إلا أنّنا نراهم بصحبة أعدائنا دائمًا!

أخذ السفير يراوغ، وحينما تحدّث عن نفوذ ملك فرنسا وقوّته، غضب الباشا وأجابه قائلًا:

- ربّما كان ملككم حاكمًا قويًّا، إلا أن خبرته ليست كافية لمواجهتنا.

كان "فاضل أحمد باشـا" يتّسم بشـخصيّةٍ متواضِعة، لكنه كان في هذا الموقف حادًّا وشديدًا لكي يواجه السفيرَ بأخطائه، والذي حمله على ذلك هو نفاق الفرنسيّين.

وحينما رأى الصدر الأعظم السفيرَ وهو مُصِرٌّ على مطالبه، قال له:

- إنَّ صاحـبَ الفخامـة مولانـا السـلطان لا علاقـةَ لـه ألبتّـة بالكفّار الآخريـن، ولا يُبرِمُ معاهدات أو اتفاقيّاتٍ تجاريّة معهم...، وإنما يسـمحُ بمثل تلك الامتيازات لأصدقائه فقط إحسانًا ولطفًا منه؛ فامتيازات الدولة

العليّة للأجانب لا تُمنَح أبدًا قسرًا، بل تتفضّل الدولة وتحسن دائمًا باللين والمسامحة، وإذا لم ترغبوا في تجديد الاتفاق، فانصرفوا.

فلم يستطع السفير أن يغادر المجلس طبعًا.

رجل دولة متديّن

في حملة بولندا عام (١٦٧٢م) ضمّ "فاضل أحمد باشا" "بودوليا" إلى الأراضي العثمانيّة، وفتح قلاعًا كثيرة، وقد أمضى الباشا حتى اليوم خمسة عشر عامًا ونصف العام في منصب الصدرِ الأعظم يعمل على تصحيح مسار النظام الفاسد وإصلاحه، ووصلت الدولة العثمانيّة في عهده إلى مجدِها وعظمتِها مجدّدًا.

أُنهكَ "فاضل أحمد باشا" كثيرًا بعد أن قضى تسعة أعوام في ميادين القتال في جبهات النمسا والمجر وكريت وبولندا، وعلى الرغم من إصابته بمرض الاستسقاء في أعقاب الحملة الثانية على بولندا، شارك في سفر السلطان من إسطنبول إلى أدرنه رغم رفض السلطان نظرًا لظروف مرضه، إلّا أنّه أصر على الخروج مع الجيش لاعتقاده بأن الموت على الفرش مذلّة، لكنّه نتيجة لتفاقم مرضه تُوفي في الثالث من نوفمبر/تشرين الثاني عام (١٦٧٦م) عن عمر يناهز الواحد والأربعين عامًا في مزرعة "قره بيبر" قرب منطقة "جورلي".

ويذكر المؤرّخون المحليّون والأجانب أنه كان رجل دولة، صَموتًا، ذكيًّا، ممعنًا في النظر إلى الأمور، صبورًا، ذا عزم، بعيد النظر، سخيًّا، زاهدًا، عطوفًا، تقيًّا.

كتب المؤرخ النمساوي الشهير "هامّر" عن خِصاله تلك، فقال:

"كان يصل إلى الحقيقة من أقصر الطرق، ويكره لغوَ الحديث؛ لذا كان متحفّظًا في قوله، صموتًا، لا يتكلم من دون تفكير، وكان عالمًا منتسبًا إلى زمرة العلماء"(٩٧).

إنه عالم في علم الكلام وخطّاط رائع

"محمد خليفة" هو المؤرخ الوحيد الذي يدعي أنّ "فاضل أحمد باشا" قد اعتاد شرب الخمر بغواية من بعض مقرّبيه، فأُصيب بمرض الاستسقاء ومات فيه.

استغلّ خصوم الدولة العثمانيّة هذا الزعم، وسَعَوا للقضاء على شعبيّة الباشا والدولة العثمانيّة كلّما سنحت الفرصة، إلا أنّ الصدر الأعظم -الذي قضى في جبهات الحرب تسع سنوات من خمسة عشر عامًا في رئاسة الوزراء، وتوفي في ريعان الشباب، وعانى الوصب والسهر في ميادين الحرب- كانت له مساعٍ توضِّح تحريم شرب الخمر حتى في الأحوال المناخيّة القاسية، وهذا يبيّن لنا أنّ ما سبق محضُ افتراءٍ قبيح عار تمامًا عن الصحّة، مصدره من الأعداء وحساد الباشا.

كان الباشا فقيهًا متكلّمًا، وخطّاطًا ماهرًا، وعالمًا راعيًا للفنّ، وأُطلق عليه لقب "فاضل" لتمتُّعه بالفضيلة، وأسّس مكتبةً بجوار ضريح ومدرسة والده بشارع "ديوان يولو"، وتبرّع بكُتبه لها.

أُحضر نعش الصدر الأعظم إلى إسطنبول، ودُفن بضريح والده "كوبرويلو" بشارع "ديوان يولو".

(٩٧) أكسون، المصدر السابق، المجلد الثاني، ص ٢٣٢.

رغم وفاته في سنٍّ مبكّرةٍ إلا أنّه ألّف ما يزيد عن عشرين أثرًا أشهرها كتاب «جهان نُما» و«كشف الظنون»..

لقد ترك بصمتَه الخاصّة والمؤثّرة على الحياة الثقافيّة والعلميّة في القرن السابع عشر، ونال بذلك عظيم التقدير والاهتمام والإعجاب والاحترام من كِلا العالمين الغربيّ والإسلاميّ..

ولقد وصفه الباحث الغربيّ الشهير «بابينجر (Babinger)» بأنه «سيوطيّ العثمانيّين».

إنه العلامة النحرير «كاتب شلبي»